خطبة صلاة الجمعة 15/3/2013 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(اسم الله تعالى: السلام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر:22-24].

عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**» [رواه مسلم].

وعن البراءِ بن عَازِب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَا فُلانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فراشِكَ، فقُل: (اللَّهُمَّ أسْلَمتُ نفْسي إِلَيْكَ، وَوَجَّهتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفوَّضتُ أَمْري إِلَيْكَ، وَأَلجأْتُ ظَهري إِلَيْكَ رَغبَةً وَرَهبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجأ وَلا مَنْجا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ، آمنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)، فَإِنَّ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنْ أصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيراً**». [رواه البخاري ومسلم].

عنوان خطبة اليوم:

(اسم الله تعالى: السَّلام)

أيها الإخوة:

جمع ابن العربي ما قاله العلماء في معنى اسم الله (السَّلام) في أربعة أقوالٍ:

1) الله السَّلام: هو المُسَلِّم عباده من كلِّ سوءٍ.
2) والله السَّلام: هو المُسَلِّم على عباده في الجنَّة.
3) والله السَّلام: هو ذو السَّلَامَةِ الذي سَلِمَ من كُلِّ عيبٍ وبَرِئَ مِن كُلِّ نَقصٍ.
4) والله السَّلام: هو الذي سَلِمَ الخَلق مِنْ أن يظلمهم، وَسَلِمَ مِنْ عذابه من لا يستحقُّه.

هي أربعة: (المُسَلِّم عبادَه، والمُسَلِّم على عبادِه، وذو السَّلَامَة، ومَنْ سَلِمَ الخلق من أن يظلمهم)، وهذه الأربعة هي محاور الخطبة:

أمَّا المعنى الأوَّل لاسم الله السَّلام: فالسَّلَام هو المُسَلِّم عبادَه مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وما أحوجنا إلى الإيمان به -في هذه الأزمة التي نرجو الله تعالى تعجيلَ كشفِها بلطفه-، فأيقنوا أنَّ الذي يَحميكم وذريَّاتكم، ويسَلِّمُكُم وأهليكم، ويحفظُكم من بين أيديكم ومن خَلفِكم، ويدفع عنكم السُّوء.. إنَّما هو الله السَّلام سبحانه.

يَمُرُّ الجنين في بطن أمِّه بمهالِك لا يحصيها عدَّاً إلَّا الله، وتعترضه إمكاناتٌ للإصابةِ بأمراضٍ وتشوُّهاتٍ يَذْكُرُ بعضَها أطباء الأطفال في مَراجعهم، لا يحيطُ بِكُنْهِهَا إلَّا الله، لكنَّ الله السَّلام يُخْرِجُه سالماً في أحسن تقويمٍ.

تسافر يرَقَاتُ سَمك ثعبان البحر من شواطئ جزر يوهاما على سواحل الولايات الأميركية مجتازةً المحيط الأطلسي، لتمرَّ بمضيق جبل طارق نحو البحر الأبيض المتوسط، فتخترقه من غربه إلى شرقه لتعيش عند مصبِّ النيل، وفي رحلتها الطَّويلة هذه تواجه -على ضَعفها وجَهلها وعَجزِها- ألافَ ألافِ المخاطر، لكنَّ السَّلام يعتني بها ويرعاها ويُسَلِّمُ معظمَهَا.

الله السَّلام: يذكِّرُنا بالحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن سيدنا جابر رضي الله عنهما قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذَاتِ الرِّقَاعِ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَسَيفُ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَلَّقٌ بالشَّجَرَةِ، فَاخْتَرطَهُ، فقَالَ: تَخَافُنِي؟ قَالَ: «لا». فقَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «الله».

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في "صحيحه"، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللهُ». قَالَ: فَسَقَطَ السَّيفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّيْفَ، فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فَقَالَ: كُنْ خَيرَ آخِذٍ. فَقَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَاْ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله؟» قَالَ: لا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لا أُقَاتِلَكَ، وَلا أَكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: جِئتُكُمْ مِنْ عِنْد خَيْرِ النَّاسِ.

فالذي سَلَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّما هو الله السُّلام.

الله السَّلام: يذكِّرني بكلام رائد الفضاء السُّوري محمَّد فارس، فبعد أن أنهى عامين يتدرَّب على كلِّ ما سيواجهه في رحلة الفضاء، وبعد أن صعد إلى المركبة قبل ستِّ ساعاتٍ من الرحلة استعداداً لها، وكانت أطول ساعاتٍ في حياته على ما قال، وبعد أن وصل إلى الدَّقيقة الأخيرة ثم الثواني الأخيرة التي بدأ بها العد التنازلي: عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة،... لما وصل العَادُّ إلى الرقم واحد قال: لم أتمالك إلا أن قلت من كل جوارحي: (يا الله).

إنه السَّلام الذي يُسَلِّمُ عباده.

أيها الإخوة:

الأعضاء النبيلة في الجسم موزعةٌ توزيعاً استراتيجياً يضمن للمرء السَّلامة؛ إن تَلَقَّى أذيةً في واحدٍ منها سَلِمَ الباقون.

والأعضاء النبيلة في الجسم محاطةٌ بحمايات وأجهزة سلامةٍ، لتنجو من المفاجِئات وتَسْلَمَ من الصَّدمات...؛ فالدماغ في صندوق الجمجمة المتين، والقلب والرِّئتان في القفص الصَّدري الأمين، والعين في الحجاج القاسي، والأوعية والأعصاب السَّطحية تحت الجلد المعطف السّميك...، إنَّه مِن صُنعِ السَّلام سبحانه.

الكِلْيَة للسَّلامة من السُّموم، وجهاز المناعة للسَّلامة من الأمراض، وآليات التخثُّر المعقَّدة للسَّلامة من استمرار نزيف الدَّم، إنَّها مِن خَلْقِ السَّلام سبحانه.

إن الله هو السَّلام، هو الذي سَلَّمَكَ وأنت جنين في بطن أمِّك، وهو الذي سَلَّمَكَ وليداً ورَضِيعاً وفَطِيماً ونَاشِئاً ويافِعاً، ويُسَلِّمُكَ بإذنه فَتِيً وشَابّاً وكهْلاً، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء:78-82].

ففي هذه الأزمة وبعدها، وفي هذه الشِّدَّة وبعدها.. اطمئنُّوا للسَّلَام، فأنتم في حفظِه وكفالته، خذوا من الحيطة أسبابَها، وابذلوا للسَّلَامة أسبابها، ولكن دعوا قلوبكم معتمدةً على السَّلام، فهو جلَّ جلاله ﴿خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:64].

ولئن أصابكم بعض الضُّرِّ، ولقيتم شيئاً من البأس، وذقتم بعض القلّة، ورأيتم جانباً من العسر فتذكَّروا أن السَّلام قدَّر فلَطَف وسلَّم، وانظروا إلى مَن فوقكم في البلاء ودونكم في الدِّين، ترون أن الله حفَّكم بألطافه، وعاملكم بإحسانه لا بإنصافه، وخصَّكم بنعم لا تحصون لها عدَّاً، وبعض بلاء الدنيا لا تجدون منه بدّاً، فأنتم في دار اختبار وابتلاء، وذلك بالنعماء والبلواء، والشدة والرخاء، فاحمدوا السَّلام على ما سلَّم، واشكروه على ما أولى به من العطايا وأنعم، واسألوه ما عنده فهو خير وأعظم.

وأمَّا المعنى الثَّاني لاسم الله السَّلام: فهو قرَّة عينِ العابدين، وغاية آمال المتَّقين، وشغف قلوب العارفين، وهو السَّلَام في الجنة على ربِّ العالمين، والنظر إلى وجهه الكريم بلا كيفٍ ولا تحديد، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22-23]، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:58]، فالسلام هو المُسَلِّم على عباده في الجنَّة.

فاستعدُّوا لهذا اليوم -أيها الإخوة-، وما كلُّ أعمالكم الصالحات، وما كلُّ صَبرِكم وبَذْلِكم وحركاتكم الخيِّرة والسَّكنات، إلا ليرضى عنكم ربُّ الأرض والسَّماوات، ويأذن لكم بالنَّظر إلى وجهه الكريم.

أخرج ابن ماجه في سننه وابن كثير في تفسيره بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيْ نَعِيْمِهِمْ؛ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُوْرٌ، فَرَفَعُوْا رُؤُوْسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَى قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:58]**»، قال: «**فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيْمِ مَا دَامُوْا يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُوْرُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَفِيْ دِيَارِهِمْ**».

قال القرطبي: وذكره الثعلبي والقشيري. ومعناه ثابت في صحيح مسلم، وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26]، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

وأمَّا المعنى الثَّالث لاسم الله السَّلام: فهو جلَّ جلاله ذو السَّلَامَةِ الَّذي سَلِمَ مِن كُل عيبٍ وبَرِئَ مِن كُلِّ نقصٍ، كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله.

- **فذاته كاملةٌ؛** قيُّوم السَّموات والأرض، لا يحتاج إلى سواه، وكلُّ الخلق محتاجون إليه.
- **وصفاته كاملةٌ؛** خافضٌ ورافعٌ، ومعطٍ ومانعٌ، معزٌّ ومذلٌّ، محيٍ ومميتٌ، قابضٌ وباسطٌ، له الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا.
- **وأفعاله كاملةٌ؛** عدلٌ كاملٌ، وحكمةٌ كاملةٌ وعلمٌ كاملٌ.

أمَّا المعنى الرَّابع الأخير لاسم الله السَّلام: فهو الَّذي سَلِمَ الْخَلْقُ مِن أن يظلمهم، وسَلِمَ مِن عذابه من لا يستحقُّه...

قبل ما يزيد على خمسين سنة صعد تاجرٌ إلى سقيفة محلِّه في سوق مدحت باشا الَّتي جعلها مكتباً لأوراقه وحاجاته الخاصَّة وراح يرتِّب أوراقه، إذ سمِعَ صوتَ خُصومٍ أمام متجره، فأطلَّ ليستطلع الخبر، فإذا بشابين يتشاجران ويتدافعان، أطلق أحدهما رصاصة في الهواء، وإذ بها تصيب التاجر في رقبته فيقع أرضاً...

حُمِلَ إلى المشفى، وإذ بالرصاصة تخترق النُّخاع الشَّوكي، ليُصاب التاجر بعدها بشللٍ رباعيّ.

حزن جوار التاجر على جارهم حزناً شديداً، وكاد أحدهم يفقد صوابه: ما ذنب هذا المسكين!!؟

ما علاقته بالأمر حتى يصاب!!؟

ذهب هذا الجار إلى أحد الشيوخ ليقصَّ عليه القصة، ويسأله: أين عدل الله، ولماذا يُظْلَم هذا الرجل!!؟

فقال الشيخ: لا تُسرع في الأحكام، أنت لم ترَ إلا مشهداً واحداً من مشاهد القصة، ولعلَّ للقصة مشاهدَ أخرى لا تعلمها ولا أعلمها...

بعد أيام يحدِّث الشيخَ أحدُ معارفه يقول: يا شيخنا، ما أعظم عدل الله، أحد تجار سوق مدحت باشا خلَّف له أخوه أيتاماً في حجره مع مالٍ لهم، أنفق عليهم العم حتى كبروا، ولما بلغوا مبلغ الرجال طالبوه بمالهم فدفعه إليهم منقوصاً مبلغاً يساوي ثمن منزلٍ في تلك الأيام...

فلمَّا سألوه قال لهم: إنَّه لن يعطيهم إلا ما دفع، وإنَّه مستحقٌّ لأتعاب إشرافه عليهم حتى بلغوا هذا المبلغ من الفتوة، فاستعطفوه ورجوا منه أن يعطيهم مالهم فما فعل...

فَكَّروا برفع دعوى إلى المحكمة، واستشاروا أحد كبار شيوخ دمشق، فاستدعاه الشيخ محاولاً ردَّه عن أكلِه مالَ اليتيم فأبى...

فقال الشيخ للأولاد: أرى أن لا تشكوا عمَّكم إلى المحاكم حفاظاً على سمعتكم وسمعة عائلتكم، ثمَّ ليس حسناً أن يتحاكم العمّ وابن أخيه أمام أقواس المحكمة، إذا أردتم الشكوى فارفعوا شكواكم إلى الله، ويبدو أن الأيتام رفعوها إلى القاضي الذي لا يُظْلَم عنده أحدٌ...

يتابع قريب الشيخ فيقول: قبل أسابيع أصابت هذا التاجر رصاصة في نخاعه الشوكي فأوقعته أرضاً مصاباً بشلل رباعي...

لما سمع الشيخ الحديث ذهب إلى جار التاجر الذي جاءه سابقاً ليسأله أين عدل الله وما ذنب هذا التاجر؟... وأخبره أن ما رآه هو كان المشهد الأخير، بينما المشاهد الأولى هي ما حدَّثه به هذا القريب ﴿ . . .وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:49].

السَّلام هو الذي سَلِمَت عن العيب ذاتُه، وسَلِمَت عن النَّقص صفاتُه، وسَلِمَت عن العبث والشرِّ أفعاله، والسَّلام هو الذي سَلِمَ الخلق مِن أن يظلمهم.

أيها الإخوة:

السَّلام: هو المُسَلِّم عبادَه، والمُسَلِّم على عبادِه، وذو السَّلَامة، ومَن سَلِمَ الخلقُ مِن أن يظلمهم

قال الإمام الغزالي: (كلُّ عبدٍ سَلِمَ عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشَّرِّ قلبُه، وسَلِمَت عن الآثام والمحظورات جوارحه، وسَلِمَ عن أن يكون عقله أسير شهوته، فهو الذي يأتي اللهَ تعالى بقلبٍ سليمٍ، وهو السَّلام من العباد، القريب في وصفِه من السَّلام المطلق الحقّ الذي لا مَثْنَويَّة[1] في صفته).

ولن يوصف بالسَّلام والإسلام إلَّا مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، فكيف يوصَف به من لم يَسْلَمْ هو مِن نفسِه.

أيها الأخ الكريم:

اعلم أنَّ السَّلامة –كلَّ السَّلامة– أن تكون مع الله ملتزماً أوامرَه ونواهيَه، واعلم أنَّه ليس في الوجود سلامةٌ إلا وهي معزيَّة إلى السَّلام وصادرةٌ عنه، فثق به، وافزع إليه وتوكَّل عليه. وقل له:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»

[1]() اسم منسوب إلى مَثْنَى، على غير قياس، والمراد: أن صفات الله تعالى ليس لها في الخلق ثانية.

والحمد لله رب العالمين